﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾ [يس: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تمثيلُ عِنادِهم بعدمِ إيمانِهم بمَن وُضِعَتْ في أعناقِهم السلاسلُ المُعيقة

لمّا بيّنَ النظمُ أنَّهم لا يُؤمنون؛ ذَكَرَ أنَّ ذلك من اللّه تعالى، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾[1]، فأوردَ الموانعَ من عدمِ إيمانِهم[2].

ومِن وجوهِ المُناسبة أيضًا أنّه لمّا كان المعنى أنّهم لا يتجدّدُ منهم إيمانٌ بعدَ البيان الواضحِ والحِكمةِ الباهرةِ، وكان ذلك أمرًا عجَبًا، علّله بما يوجِبُه من تمثيلِ حالهم؛ تصويرًا لعزّته سبحانه وباهرِ عظمتِه، الّذي لفَتَ الكلامُ إليه لإفهامِه، وهذا الذي ذُكِر هو اليوم معنًى ومثالٌ، وفي الآخرةِ واقعٌ ظاهرٌ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعْنَـٰقِهِمْ﴾: (عنق) أَصْلُ الكلمةِ مِنَ العَنَقِ، وهو الامتدادُ والإسْراعُ، يُقال: أَعْنَقَ يُعْنِقُ، إعناقًا، فهو مُعْنِقٌ: إذا أَسْرَعَ، والعُنُقُ: الرَّقَبَةُ والوُصْلَةُ ما بين الرَّأْسِ والجَسَدِ، يُقال: رَجُلٌ أَعْنَقُ؛ أيْ: طَويلُ العُنُقِ[4]، والأعناقُ: جَمْعُ عُنُقٍ بِضَمَّتَيْنِ وقدْ تُسَكَّنُ النّونُ، وهوَ مُؤَنَّثٌ، وقيلَ: المضمومُ النّونِ مُؤَنَّثٌ، والسّاكنُ النّونِ مُذَكَّرٌ[5].

2) ﴿أَغْلَـٰلًا﴾: (غلّ) أصلُ الكلِمَةِ يدلُّ على تَخَلُّلِ شَيْءٍ وثَباتِ شَيْءٍ كالشَّيْءِ يُغْرَزُ، مِن ذلكَ قَولُ العَربِ: غَلَلْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 254.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 692.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 95.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سِيدَه، المُحكم: (عنق).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 96.

إذا أَثْبَتَّهُ فيه، كأَنَّهُ غَرَزْتَهُ؛ ومنهُ سُمّي الحِقدُ غِلّا؛ لأنَّ الحِقْدَ يَتَخلَّلُ الصَّدْرَ، والغُلُّ: جامِعةٌ توضَعُ في العُنق أَوِ اليَدِ، والجَمْعُ: أَغلالٌ، ويُقالُ: في رَقَبَتِهِ غُلٌّ من حديدٍ[1]، والمقصود بالغُلِّ في الآية: ما أحاطَ بالعُنُق على معنى التَّضييقِ والتَّعذيبِ والأَسْر، أوْ يكونُ مع العُنق اليدانِ أوِ اليدُ الواحدة[2].

3) ﴿ٱلْأَذْقَانِ﴾: (ذقن) كَلمةٌ واحدَةٌ إلَيها يَرجعُ سائِرُ ما يُشتَقُّ منَ البابِ، فالذَّقَنُ ذَقَنُ الإنسانِ وغيرِه، وهو مَجْمَعُ لَحْيَيْهِ، ومكانُ اجْتِماعِ اللَّحْيَيْنِ أَسفلَ الوَجهِ، واللَّحْيانِ هما العَظْمانِ اللَّذانِ تَنبُتُ عليهما الأَسنانُ السُّفلى، ويُقالُ: ذَقَنَ الرَّجُلُ يَذْقَنُ ذَقَنًا؛ أيْ: وضَعَ يَدَهُ تَحْتَ ذِقْنِهِ وذَقَنِهِ[3]، ويُطْلَقُ على الشَّعْرِ الذي يَنْبُتُ أَسْفَلَ الوَجْهِ، وعلى الوجهِ نفسِه كذلك، والذَّقَنُ في الآية: مُجتمَعُ اللّحيَيْنِ.

4) ﴿مُّقْمَحُونَ﴾: أصلُ (قمح) يدلُّ على صفةٍ تكونُ عندَ شُرْبِ الماءِ من الشّارِبِ، وهو رفعُه رأسَهُ، من ذلكَ القامِحُ، وهو الرّافِعُ رأْسَهُ من الإبلِ عند الشُّرْبِ امتناعًا منه، وجمعُهُ قِماحٌ، والإقماحُ: رَفْعُ الرأْسِ وغَضُّ البَصَرِ، يُقالُ: أَقْمَحَه الغُلُّ إذا تَرَكَ رأْسَه مَرفوعًا مِنْ ضيقِهِ[4]، والمُقمَحُ بصيغةِ اسم المفعولِ في الآية مُرادٌ به: المجعولُ قامِحًا؛ أيْ: رافعًا رأْسَه ناظرًا إلى فَوقِه[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

صوَّر الحقُّ تعالى انكبابَ الكافرينَ على كُفرِهم وتصميمَهم وإصرارَهم عليه تصويرًا بليغًا، فقال: إنّا جعَلْنا في أعناقِهم قُيودًا

مَن قابَلَ دعوةَ الإسلامِ بالإعراضِ والعِنادِ؛ كان حقيقًا بعِقابِ ربِّ العبادِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن سِيدَه، المُحكم، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غل).
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 447.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذقن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قمح).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 350.

تَبلُغُ أذقانَهم، فهم رافِعو رُؤوسِهم لا يَقْدِرونَ أنْ يُطَأْطِئوها، والمُراد: منعناهُم بموانعَ عن الإيمان تُشبِهُ ما ذُكر، فهم غضّوا أبصارَهم، لا يَلتفتونَ إلى الحقِّ، ولا يَعطِفونَ أعناقَهم نحوَه، ولا يُطَأْطِئون رؤوسَهم له، والقصدُ وصفُهم بالتّأبّي عن الانقيادِ للحقّ، وعن الإذعانِ لقَبولِ الرّشَد[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

التّعجيبُ من عدمِ إيمانِ الكافرينَ مع الإنذارِ والإبلاغِ

لمّا أخبرَ الله تعالى عن أكثرِ الكافرينَ أنَّهم لا يُؤمنونَ كانَ كأنَّ سائلًا يسألُ عن سببِ عدمِ إيمانِهم مع أنَّ رسولَ الله ﷺ قد أنذرَهم والقرآنُ بين أيديهم، فكأنَّ الأمرَ ممّا يُتعجَّب منه حتَّى يُعلَمَ سببُه، فقال مُبيِّنًا السّبب: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ فهو: "كلامٌ مُستأنفٌ مَسوقٌ لتمثيلِ تصميمِهم على الكُفر، وأنّه لا سبيلَ إلى ارعوائِهم عن غيِّهم"[2].

علّةُ إيثارِ التّعبيرِ بالتّأكيدِ:

ما أكّدَهُ القرآنُ واقعٌ على الحقيقةِ بلا رَيبٍ

جاءَ الكلامُ على التَّأكيد بـ(إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ لتكذيبِ الكافرين بالأمرِ، ولتقريرِ ثبوتِ هذا الجَعْلِ وعدم انفكاكِه عنهم، ويمكنُ أنْ يكون التّأكيدُ بتأكيدٍ واحدٍ للمُتسائِل عن شكِّه في استحقاقِهم الإضلالَ وثبوتِ القولِ على أكثرِهم، فنفى ذلك الشكّ ببيانِ صورةِ إحقاقِ القولِ عليهم بتصويرٍ حِسّيٍّ، بمنعِهم من الالتفاتِ إلى الإيمانِ.

دلالةُ اتّصالِ المُسنَد إليه بضميرِ العَظَمَةِ:

لا يقدرُ على تجسيدِ العظيمِ إلّا العظيمُ

دلَّ مجيءُ المُسنَد إليه مبتدأً وفاعلًا بصيغةِ ضميرِ العَظَمَة في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 403، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 146، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 692.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 176.

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ على أنَّ مثلَ هذا الجعلِ لا يَقْدِر عليه إلّا اللّهُ الملكُ الواحدُ الأحدُ، كما يُفيدُ هذا التّعبيرُ أنّ ذلك الجَعْلَ والتّصييرَ مانعٌ قويٌّ من قبولِ الإيمان والقدرةِ على النّظر في حقائقِهِ البيّنة.

نكتةُ التّعبيرِ بالمُسنَد جملةً فعليّةً:

جعلُ الأغلالِ في أعناقِ الكافرين، لا يقدرُ عليه إلّا ربُّ العالَمين

عُبِّر بالمُسنَد جملةً فعليّةً في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ دونَ (صيّرنا)؛ للإشعارِ بأنَّ جعلَ الأغلال في أعناقِهم أمرٌ عجيبٌ لا يقدر عليه إلّا اللّه تعالى، كما أنَّ التّعبير بالجعلِ دونَ التّصييرِ يفيدُ قوّة الأمرِ وتمكّنه، وأنَّه ما انفكَّ عنهم أصلًا وما زالَ، وصوغُه على هيئة الماضي يُفيد تقوّيَ الحُكم بنفس التّركيب وتحقيقِه وتأكيدِ وقوعه، فالمُرادُ تحقيقُ جعلِ اللّه تعالى في أعناقِ الّذين كذّبوا رسولَ اللّه ﷺ أغلالًا دونَ تخصيصِ هذا الجَعْل بهم وعلَيهم.

الوعيدُ بالعذابِ وتصويرُه أشدُّ على النّفسِ من وقوعِه

ويجوزُ أنْ يكونَ الجعلُ وعيدًا بما سيحلُّ بهم يومَ القيامة حينَ يُساقونَ إلى جهنّمَ في الأغلال، كما أشارَ إليه قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر: 71 - 72]، فيكون فعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ مُستقبلًا وعُبِّرَ عنه بصيغةِ الماضي لتحقيقِ وقوعِه؛ كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، والمعنى: سنجعلُ في أعناقِهم أغلالًا[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

جعْلُ اللهِ تعالى ثابتٌ لا يُزيلُه كفرٌ ولا عِناد

أفادَ التّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أنَّ هذا الجعلَ ثابتٌ لا يزولُ بسببِ كُفرِهم وتكذيبِهم، وفي الثّباتِ ترسيخٌ للعذاب، وإثباتٌ للعقاب فلا مَناص، ولا سبيلَ إلى هروبٍ.

فائدةُ حرفِ الظّرفيّةِ ﴿فِى﴾:

لمّا كانَ حرف الجرِّ ﴿فِى﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 350.

تغلغلُ الأغلالِ في أعناقِ الكافرين، كتمكّن المظروفِ من ظَرفِه

﴿أَغْلَٰلًا﴾ للظّرفيَّة، أفادَ تغلغُلَ الأغلالِ في الأعناقِ وتمكّنَها فيها، كما يتمكّنُ المظروف من ظَرفِه، وأشارَ بالظّرفِ إلى أنَّ الأغلالَ من ضيقِها لزَّتِ اللَّحمَ حتّى تثنَّى على الحديدِ فكادَ يُغطّيه فصارَ - والعنُق فيه - كأنّه فيها، وهي مُحيطةٌ به[1]، وفيه إشعارٌ بثباتِ الأغلال في أعناقِهم زمانًا طويلًا تشبيهًا لاستمرارِهم عليها باستقرارِ الظّرف في المظروف المُشتمِلِ عليه، وفي وضعِ حرفِ الظَّرفيّة مكانَ حرفِ الاستعلاءِ الدّالِّ على الإحاطةِ بالعُنُق استعارةٌ تبعيّةٌ بالحرف، للدلالةِ على شدّةِ إحاطةِ الأغلالِ بالعنُق، كأنّها فيه وليستْ مُحيطةً به.

بلاغةُ التقديمِ في: ﴿جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾:

الإقماحُ يكونُ في هذا النّوع من الجعلِ دونَ غيرِه

الفعل في قوله: ﴿جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ فعلٌ يَتعدّى إلى مفعولَيْنِ؛ بمعنى: صيّرنا، وتقديمُ ما هو في موقعِ المفعول الثّاني ﴿فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ على المفعول الأوّل ﴿أَغْلَٰلًا﴾ يُفيدُ الاهتمامَ والعناية، للتّنبيه إلى أنَّ هذا النّوعَ من الجَعْل يُؤذنُ ببيانِ سببِ كُفرِهم وتكذيبِهم، ويفيدُ التّقديمُ أيضًا التّخصيص؛ بمعنى أنَّ الإقماحَ يكون في هذا النّوع من الجَعْلِ دونَ غيرِه.

بلاغةُ القلْبِ البلاغي في الآية:

إظهارُ المبالغةِ في وصفِ ضيقِ الأغلالِ الضّاربةِ في الأعناقِ

الظّاهرُ أنَّ قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ من بابِ القلب، فإنَّ الأعناقَ هي الّتي تكونُ في الأغلال لا العكس، فكان الظّاهرُ أنْ يُقال: جعلنا أعناقَهم في الأغلال، فلمّا عكسَ كان من قبيل مجيءِ الكلام على خلافِ مُقتضى الظّاهر، ونكتتُه بيانُ أنَّ الأغلال ضيّقةٌ جدًّا، بحيثُ تحصرُ أعناقَهم وتدخلُ فيها، حتّى تصير الأغلالُ مضروبةً في أعناقهم، فالقلبُ في الإسناد للمبالغةِ في وصف ضيقِ الأغلال الضّاربةِ في الأعناق[2].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 96.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 63، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿أَغۡلَٰلًا﴾:

التّمثيلُ بالأغلالِ وصفٌ لبشاعةِ الكفرِ والضّلالِ

الأغلالُ جمعُ (غُلّ)، وهو حلقةٌ عريضةٌ من حديد كالقِلادةِ، تُطوّقُ رقبةَ المغلولِ، وآثرَهُ لفظًا للإشعار بأنَّ هذه الأغلالَ توثِقُ الأعناق على معنى التّعنيف والتّضييق والتّعذيب والأَسر[1]، وفي هذا اللَّفظ إشعارٌ بالإهانة؛ لأنَّ وضعَ القيدِ في العنُق ليس كوضعِه في اليد؛ بل إنَّ وضعَه في الأيدي ليس مانعًا لهم من رُؤيةِ الحقِّ، والغرضُ من التّصوير بيانُ الخِذلان لهم بعدمِ تمكُّنهم من رؤيةِ الحقِّ.

فائدةُ تنكيرِهِ وجمعِهِ:

هـولُ الأغـلالِ تنبيهٌ على هولِ المآلِ

تنكيرُ ﴿أَغۡلَٰلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾؛ للتّعظيم والتّهويل؛ أيْ: أغلالًا عظيمةً هائلةً، وأيَّد هذا إسنادُ فعلِ الجَعْلِ إلى نونِ العَظَمَةِ كما تقدَّم[2]، ففي التَّنكير والنّون مبالغةٌ في تعظيمِها وتهويلِ أمرها، كما دلَّ الجمعُ على الكثرةِ والشُّمول، فلا يخلو عُنقٌ عن غُلٍّ عظيمٍ يحيطُ بأعناقهم.

فائدةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾:

تجليَةُ الصّورةِ إبانةٌ مبرورةٌ

(الفاء) في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ عطفٌ على جملة ﴿جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾؛ أيْ: جعلنا أغلالًا؛ فأبلغْناها إلى الأذقان[3]، فجيءَ بها للتّفريع والتّعقيب؛ تكميلًا للصّورةِ وترتيبِها؛ بإفادة ترتُّبِ مدخولِه عَلَى ما قبلَه، أو للتّعليلِ لجعلِ الأغلال في الأعناق[4].

دلالةُ عَوْدِ الضّميرِ في ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾:

مفادُ الاستغناءِ عن ذِكْرِ الأَيدي الموثَقةِ بالأغلالِ المُعلّقةِ

يحتملُ أنْ يكون الضّميرُ في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ عائدًا إلى (الأغلال)، والمعنى: فالأغلالُ إلى الأذقان، والدّليلُ عليه تأخيرُ الأغلالِ ليعودَ الضّميرُ إليه، وقوله: ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾؛ إذ جعلَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 50، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 350.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 176.

الإقماحَ نتيجةَ قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، ولو كان الضّمير للأيدي لم يكُن معنى التَّسبُّب في الإقماحِ ظاهرًا، كما أنَّ الغايةَ من التصوير منعُ هؤلاء المُكذِّبين من الحقِّ نتيجةً طبيعيّةً لإصرارِهم على التّكذيب، فكانَ الخِذلانُ مُرافقًا لهم، ويكفي في تصويرِ المنعِ كونُ الغُلِّ مانعًا لهم من حركةِ الرّأس ليُبصِرَ الحقَّ والحقيقة دونَ ضمِّ الأيدي إلى الصّورة، وذهبَ بعضُ علماءِ العربيّة والتَّفسير إلى أنَّ الضّميرَ يعودُ إلى غير مذكورٍ بما دلَّ عليه السّياقُ، والتّقدير: فأيديهم مجموعةٌ بالأغلالِ في أعناقِهم، فكُنّي عن الأيدي، ولم يَجْرِ لها ذِكْرٌ؛ لمعرفةِ السّامعينَ بمعنى الكلام، وأنَّ الأغلال إذا كانتْ في الأعناق لم تكنْ إلّا وأَيدي المغلولينَ مجموعةٌ بها إليها، فاستغنى بذِكْرِ كونِ الأغلالِ في الأعناقِ عن ذِكْرِ الأيدي[1].

الغُلّ يدلُّ على اليدِ ويَستلزمُها

ولا يخلو عودُ الضّمير على (الأيدي) من وجاهةٍ وسموٍّ بيان، وفيها مبالغةٌ في تصوير الهَوْل تتلاءمُ مع سياقِ الكلام؛ فإنّ الأيديَ وإنْ لم يجر لها ذِكْرٌ في العبارة فإنَّ الغُلّ يدلُّ عليها، بل ويستلزمُها، ولا شكّ أنّ ضغطَ اليد مع العُنُق في العنق يوجِبُ الإقماحَ، زِدْ على ذلك أنَّ اليد متى كانت مُرسَلةً مُخلّاةً كان للمغلولِ بعضُ الفرحِ بإطلاقِها، ولعلَّه يتحيَّل بها ويستعينُ على فِكاك الغُلِّ، وليس الأمر كذلك إذا كانتْ مغلولة[2].

فائدةُ حرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾:

بيانُ أثرِ الحرفِ في تجليةِ المعنى

يفيدُ حرفُ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ الغايةَ المكانيَّة؛ بمعنى أنَّ الأغلالَ واصلةٌ، أوْ مُنتهيةٌ إلى أذقانهم - وهي مجمَعُ اللَّحيَيْن من أسفلهما -[3] فلا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 493، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 279، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 5، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 447، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 254، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 50.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 177.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.

تدعُهُم يَلتفتونَ إلى الحقِّ ولا يَعطفونَ أعناقَهم نحوَه، ولا يُطأطِئونَ رؤوسَهم له[1]، ورسمَ الحرفُ الجارُّ أنَّ تلك الأغلالَ من نوعٍ خاصٍّ ليس الغرضُ منه جرَّ الأسير والمقيَّد إلى مكان، بل أغلالٌ مانعةٌ من الرُّؤية، فلا بدَّ أنْ تكونَ عريضةً تصلُ إلى منطقةِ الذّقن حتى تمنعَ صاحبَها من الرُّؤية، فأفادَ الحرفُ دلالةَ العَرض كما أفاد وضعُها في الأعناق دلالةَ الاندماج الكامل في العُنقِ، حتى تبدو للنّاظرِ أنَّها فيه وليس عليه ومُحيطةً به.

فائدة (أل) في ﴿ٱلْأَذْقَانِ﴾:

شمولُ الوصفِ لكلِّ مَن كفرَ الرّسولَ وكذّبَ التّنزيلَ

(أل) في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ عهديّةٌ؛ بمعنى: إلى الأذقانِ المعهودةِ عند المخاطَبينَ، أوْ تكونُ عِوضًا عن المضافِ إليه[2]، والمعنى: فهي إلى أذقانِهم، ويكونُ سببُ العدولِ عن ذِكْرِ المضافِ إليه إلى التّعبير بالاسم معرَّفًا بـ(أل) هو بيانَ أنَّ هذا الوصفَ لا يختصُّ بهم؛ بل يشملُ كلَّ مَن كان مثلَهم؛ أيْ: مَن كفر باللّه تعالى وكذّب بالرّسول ﷺ وبالتّنزيل.

مناسبةُ ذِكْرِ ﴿ٱلْأَذْقَانِ﴾ دون (المَنَاكِبِ):

ذِكْرُ جهةِ العُلوّ آثَرُ في البيانِ وأوضحُ

لمّا كانَ من المعلوم أنَّ الحديدَ إذا وُضِع في العنق أنزلَه ثقلُهُ إلى المنكِب، لم يذكُرْ جهةَ السّفل وذَكَرَ جهة العلوّ فقال: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾[3]، كما أنَّ المانعَ من حركة الرأس كونُ الأغلالِ واصلة إلى المفْصَلِ المسؤولِ عن حركةِ الرّأسِ وذلك بالأذقانِ دونَ المَنْكِبِ.

نكتةُ مجيءِ الفاءِ في قولِه: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾:

دلالةُ الفاءِ بين التّفريعِ والسّببيَّةِ مفيدةٌ للمُرادِ

تحتملُ (الفاء) في قوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ التّفريعَ لإتمام الصّورة، كقوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، ويحتملُ أن تكونَ للتّسبُّب، فإنَّ ضغطَ طوقِ الأغلالِ على الأعناق، يُسبّب الإقماحَ ويَضطَرُّ الرّؤوسَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 160.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 96.

إلى الارتفاع، وإنْ كان الضّمير في: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ يعودُ إلى الأيدي؛ فالمعنى: إنَّ ضغطَ اليدِ مع العنق يوجِبُ الإقماحَ؛ لأنَّ اليدَ تبقى مُمسكةً بالغُلِّ تحتَ الذّقن رافعةً لها[1].

دلالةُ الضّميرِ في قولِه: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾:

عــودُ الضّـمير تمكينٌ للمعنى الأثير

يعودُ الضّميرُ على القومِ المُنذَرين الغافلينَ عن نعمةِ الإنذارِ، بما اتّصفوا به من حقوقِ القولِ عليهم، ومن جعلِ اللّه تعالى الأغلالَ في أعناقِهم، ليفيد أنَّهم بما اتّصفوا به صاروا مُقمَحينَ.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿مُّقْمَحُونَ﴾:

لا ينفعُ مَنْ سُلِبَ الاستطاعةَ إنذارٌ ولا تذكيرٌ

المُقمَحُ هو الّذي يرفعُ رأسَه ويغُضُّ بصرَه لا يستطيعُ الإطراقَ[2]، وجاء لفظ ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ خبرًا عن الكافرينَ لبيانِ ما صاروا إليه، بعد أنْ جعلَ اللّه في أعناقِهم أغلالًا فكانت إلى أذقانِهم، فإمّا أنْ يكون التّعبير بلفظ ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ لتمثيلِ رفعِهم رؤوسَهم عن النّظر إلى الدّاعي تكبُّرًا وشَماخة، بحيث لو أمكنَهم أنْ يَسكُنوا الجوَّ لم يتأخّروا صلافةً وتيهًا، وإمّا أن يكون تمثيلًا لما هم عليه من تركِ الانقيادِ إلى دين اللّه العظيم الحسَنِ الجديرِ بأنْ يُقبَلَ عليه ويُتروّى منه، وهم في غايةِ الحاجةِ إليه، ففيه إيذانٌ بأنَّهم لا يستطيعونَ فعلَ أيِّ شيءٍ، فلا ينفعُهم إنذارٌ ولا تذكيرٌ، ويترجّحُ الثّاني لأنَّ وضعَ الأغلالِ يتلاءمُ مع الإهانةِ والقسرِ على الحركة المخصوصة، فلا يكونُ رفعُ الرأس كِبرًا ناجمًا عن اختيار؛ بل رفعًا مُضطرًّا إليه يمنعُهُ من رؤية الحقّ بعدَ أن خصّ به واستكبرَ عليه وشكّ في صدقه.

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

المـقـصـودُ بـيـانُ حـالِـهـم وسـوءِ أفعالِهم لا مَن فعلَ ذلك بهم

عبّر في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ بصيغة المبنيِّ للمفعول؛ للإشعارِ بأنَّ إقماحَهم كان بفعلِ فاعلٍ، ولكنْ خفي عليهم

(1) ابن المنير، الانتصاف حاشية على الكشاف: 4/ 5، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 13.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 363.

الأمرُ بسببِ سوء أفعالِهم وانهماكِهم في شِرْكِهم، فلا يملكونَ أن يكونوا غيرَ مُقمحين، ففيه إشارةٌ إلى أنّهم مغلوبونَ مَقهورونَ على تفويتِ حظّهم من اتّباع دينِ اللّه، والانصياعِ لأمرِ رسول اللّه ﷺ[1]، وفي حذفِ الفاعلِ تكميلٌ للصّورةِ القبيحةِ الّتي هم عليها؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ حالِهم، وليس بيانَ مَن فعل هذا بهم، وإنْ كان قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾، يدلُّ على الفاعل.

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ في السّياقِ:

ثبوتُ الإقماحِ، دليلٌ بأنّه لا يزولُ عنهم

وقوعُ جملة الفاصلة: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ جملةً اسميَّةً يفيدُ الثّبوت؛ بمعنى أنَّ كونَهم مُقمَحينَ هيئةٌ ثابتةٌ لهم لا تزول؛ إذ تعلّقَ الحرمانُ بهم فمنعَهم من الانتباهِ إلى نعمةِ التذكير والإنذار، لأنّهم لم يتفطَّنوا إلى أنَّ إنذارَهم من دون إنذارِ آبائهم نعمةٌ عظيمةٌ، توجبُ عليهم الإقبالَ والإيمان، بل غفَلوا عنها وكذّبوا بها، فكانتِ العقوبةُ من جنسِ العملِ، وهي إبقاؤُهم في غفلةٍ دائميّةٍ، لا يستطيعونَ فيها رؤية الحقِّ والالتفات إليه.

بلاغةُ الاستعارةِ في الآيةِ:

مِن موانعِ الإيمانِ عدمُ النّظرِ إلى نعمةِ الإنذارِ تكبُّرًا وتيهًا

في قوله: ﴿جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ مركّبة، فشبَّه تصميمَهم على الكفرِ واستكبارَهم عن أمر اللّهِ بحيث لا تُغني عنهم الآياتُ والنّذُرُ حتّى تعامَوا عن رؤيةِ النّعمةِ والسَّعادةِ واستحقّوا الخِذلانَ وعدمَ التَّوفيقِ إلى الإيمانِ بمَن جُعلَت الأغلالُ في أعناقِهم، فلا يلتفتونَ إلى الحقِّ ولا يَعطفونَ أعناقَهم نحوَه، ولا يُطأطِئونَ رؤوسَهم له، فلا يقدرونَ على انتهاجِ السّبيلِ ورؤيتِه ولا يَهتدون إليه أبدًا، وهم مُستكبرون عن الحقِّ، لتشبيهِ استكبارهم بالإقماح؛ لأنَّ المُقمَحَ لا يُطأطِئ رأسه، فجمعتِ الاستعارة وصفَهم بالاستكبارِ وبالاستصغارِ، فهم مُستكبرونَ في

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 97.

ظاهرهم أذلّاءُ في باطنِهم، وجاء قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ لتكميل الصّورةِ، ببيانِ أنَّ الأغلالَ عريضةٌ واصلةٌ إلى الأذقانِ قد طوّقتْها، فلا تُخلّيهم يُطأطئونَ رؤوسَهم له؛ لأنَّ طوقَ الغُلِّ الذي في عنقِ المغلولِ يكونُ في مُلتقى طرفَيهِ تحتَ الذَّقنِ حلقةٌ فيها رأسُ العمودِ خارجًا من الحلقةِ إلى الذِّقنِ، فلا يُخلّيه يطأطئ رأسَه؛ أيْ: لمّا اشتدّتِ الأغلالُ حتّى وصلتْ إلى أذقانهم وطوّقتها اضطَرّتْ رؤوسَهم إلى الارتفاعِ، فكانت النّتيجةُ ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾؛ أيْ: فهم رافعونَ بصرَهم غاضّون طرفَهم، فيكونُ قوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ من تمام الصّورة البيانيَّة[1]، وهذا التّشبيهُ على القول بأنَّ الضّمير في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ عائدٌ إلى الأغلالِ، وأمّا على القولِ بأنَّه عائدٌ إلى الأيدي بدلالةِ السّياقِ، فإنَّها إذا كانت مُطلقةً مُرسَلةً كان للمغلولِ بعضُ الفَرَجِ بإطلاقِها، فربَّما تحيّل بها على فكاك الغلّ، فيكون غلُّ اليدِ إلى العُنق مُنبّهًا على انسدادِ بابِ الحيلةِ؛ فيكونُ انسدادُ بابِ الحيَل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقةِ الكفرِ المُقدَّر عليهم مُشبَّها بغَلِّ الأيدي إلى الأعناق، فإنَّ اليدَ آلةُ الحيلةِ إلى الخلاصِ[2]، ولا يخلو هذا الوجهُ من وجاهةٍ وسموٍّ بيانٍ، وفي هذه الصّورةِ مبالغةٌ في تصويرِ الهولِ تتلاءمُ معَ سياقِ الكلام.

وجـهُ الحقيقةِ في الآيـةِ تحقّقُ الـوقـوعِ عقابًا يومَ القيامةِ

وذهب بعضُ أهلِ التّفسيرِ إلى أنَّ الكلامَ على الحقيقةِ، والمقصودُ أن يكون ذلك لهم في الآخرة، وهو كقوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: 71 - 72]، ويكون التّعبير بصيغة الماضي ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: سنجعلُ، ونكتةُ التّعبير بالماضي الإيذانُ بتحقّقِ الوقوع، ومثلُه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 5 - 6، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 447، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 264.

(2) ابن المنير، الانتصاف: 4/ 5، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 14.

ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]؛ أيْ: يقولُ اللّهُ له يومَ القيامةِ[1]، ولا يخفى ضعفُهُ؛ لأنَّ السّياقَ تعليلٌ لاستحقاقِهم العذابَ، وهي غفلتُهم عن اختصاصِهم دونَ آبائهم بنعمةِ الإنذارِ، فكان تكذيبُهم غفلةً عن تلك النِّعمة، حتى استحقّوا الحرمانَ منها ومن رؤيتِها.

علّةُ إيثارِ التّعبيرِ بالاستعارةِ التّمثيليَّةِ:

تمثيلُ المعقولِ بالمحسوسِ من البيانِ القرآنيّ المأنوسِ

لمّا جاء التّمثيلُ في أعقابِ بيانِ أنَّ أكثرَ الكافرين لا يؤمنونَ، ولمّا نُقلت صورةُ المعنى الأصليِّ إلى صورةِ التّمثيلِ بطريقِ تشبيهِ المعقولِ بالمحسوسِ الَّذي جاء على الذّمِّ، كان مسُّ الكلامِ على الكافرين أوجعَ، وميسمُه ألذعَ، ووقعُه أشدَّ، وحدُّه أحدّ، كما أنَّه لَمّا جاء الكلامُ في بيانِ سببِ عدمِ إيمانِهم ليكونَ بالدَّليل المنقول من المعقول إلى المحسوس كانَ البرهانُ بصورةِ التّمثيلِ أنورَ، وسلطانُه أقهر، وبيانُهُ أبهر[2]، فأوثرَ التّعبيرُ بالاستعارةِ التّمثيليَّة في هذه الآيةِ لبيانِ سببِ امتناعِهم عن الإيمانِ وتصميمِهم على الكُفرِ وبقائِهم عليه إلى المَوتِ.

بلاغةُ الكنايةِ في الاستعارةِ التّمثيليّةِ:

تأنيسُ الرّسولِ الأكرمِ وتصبيرُه على عدمِ إيمانِ الكافرين

عبّر بجعلِ الأغلالِ في أعناقِهم على طريقِ الاستعارةِ كما تقدَّم، وفي هذه الاستعارةِ كنايةٌ عن ذِلَّتِهم واستسلامِهم وصَغارِهم بسبب عدمِ إيمانِهم بدلالةِ جَعْلِ الأغلال في الأعناق، وفيها كنايةٌ كذلك عن مَنْعِ اللّهِ إيّاهم عنِ الاهتداءِ بالإنذار، فهم مَغلوبونَ على أمرِهم بسببِ تصميمِهم على الكُفرِ[3]، وفيه تأنيسٌ لرسولِ اللّه ﷺ، وتسليةٌ لقلبِه الشّريف ﷺ وتصبيرٌ له على إصرارِهم على الكفرِ؛ لأنَّه بيَّن أنَّ ما هُم عليه هو بجَعْلِ اللّهِ تعالى ذلك الضَّلالَ في قلوبِهم.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 505، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 49.
(2) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 86.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 523.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغُلّ والقَيد:

الغُـلُّ هو الطّوقُ الّذي في العُنُق خاصَّةً، وإيثارهُ دليلُ الصّغارِ والأَسرِ والتّعذيبِ

الغلّ والقَيدُ كلاهما للتّضييقِ، وكلُّ شيءٍ أَسِرَ بعضُه إلى بعضٍ فهو قيدٌ، فإنْ كان طوقًا في العُنُق فهي الأغلالِ؛ لتفيدَ أشدَّ التّقييدِ على معنى الصّغارِ والأسرِ والتّعذيبِ، وممّا يُفرِّق بينهما أنَّ الأغلالَ تُحيط بِالعُنُقِ خاصَّةً؛ أيْ: تكونُ حلقةً في العنق، أوِ الأغلالُ هي ما يجمعُ اليديْنِ أو اليدَ الواحدة وهي اليمينُ إلى العُنُق، وأمّا القيدُ فيكون للقدمِ ولليديْنِ، فيُقال للقِدَّة الَّتي تَضُمّ عرْقوَتَي الرَّحْل قَيْد، وذهب بعض اللُّغويّين إلى أنَّ الأغلال لا تكون إلّا فيما يجمعُ اليديْنِ إلى العنق أوِ اليدَ اليُمنى إلى العنق؛ لأنَّ الغلّة لا تكون في العُنُق دونَ اليدِ، ولا في اليدِ دونَ العُنُق، وإنّما تغلّ الأيدي إلى الأعناقِ، وأمّا القيدُ فيكون في اليديْن أوْ في القدميْنِ أوْ في العنُق[1]، وناسبَ السّياقَ اصطفاءُ لفظِ الأغلالِ بوصفه طوْقًا للعنُق؛ وليُفيدَ تطويقَهم بأشدِّ التّقييد، للدِّلالة على الصّغار والأَسْرِ والتّعذيب، ونتحسَّسُ فرقيْنِ آخَرَيْنِ بين اللَّفظيْنِ؛ هو أنَّ الأغلال تكونُ أكثرَ ضيقًا من القيود؛ فهي تحيطُ بالعنق كأنَّها تدخل فيه، بخلاف القيود فإنَّها لم يُلحَظ في معناها دلالةُ التَّضييق بما يُحيط به، وأنَّ الأغلالَ تُشعِرُ بالذُّلِّ بشكلٍ أعمقَ من القيودِ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (غلل، قيد)، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 18/ 455، والمنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 339، وابن عادل، اللُّباب: 5/ 273.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»